الفروسية العربيـــــة

للميجر كلوب

ترجمة الأستاذ جميل قبعين

— ٣ —

ومن أشهر الحكايات ما جاء في التوراة عن سيدنا ابراهيم الخليل (بينما هو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار — رفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه ، فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد على الأرض وقال يا سيد إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك . خذوا قليل ماء واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة ، وخذوا كسرة خبز لأنكم قد مررتم على عبدكم. فقالوا هكذا نفعل كما تكلمت . فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارة وقال اسرعي بثلاث كيلات دقيق سميد اعجني واصنعي خبز ملة ثم ركض إبراهيم إلى البقر ثم أخذ عجلاً رخصاً وجيداً وأعطاه إلى الغلام فأسرع ليعمله . ثم أخذ زبداً ولبناً والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم وإذ كان واقفاً لديهم تحت الشجرة أكلوا) وأرجو أن ألفت نظركم إلى أن سيدنا إبراهيم عند ما دعا هؤلاء الجماعة لم يكن يعرف من هم وقد طلب منهم أن يتناولوا شيئاً من الخبز والماء قائلاً « إن وجدت نعمة في أعينكم » وهذا دليل على أنهم يرفعون من شأنه بتناولهم الطعام عنده ، وتراهم جلوساً بانتظار الخبز والماء ولكن تراه يقدم لهم عجلا وزبداً ولبناً بدل الذي دعاهم إليه . ثم يقف بين أيديهم لخدمتهم . فالبدوي يقدم آخر شاة عنده طعاماً لضيف غريب، وهذه هي عادتهم التي ساروا عليها من قرون طويلة. وأظن أن أخبار حاتم الطائي معروفة لديكم إذ أنه بعد أن ذبح جميع ما يملك من ماشية وإبل لإطعام الفقراء من قبيلته في سنة محل ذبح لهم فرسه وهي آخر ما يملك . ومن المتبع أن يقف عبيد الشيوخ على باب الخيمة منادين على الطعام . وقد لقب الناس ابن مهيد أحد شيوخ عنزة « بالمنادي على الطعام » لأن عبيده كانت تنادي الناس يومياً إلى الطعام في سنة قحط

إن العيب كل العيب في نظر البدوي أن تطعمي طعاماً يكفي لضيوفك فقط ، وحتى في رمضان عندما تكون القبيلة بأجمعها صائمة ترى أنهم ينحرون ثلاثة أو أربعة خراف لإطعام بضعة أشخاص مع علمهم بأن بقية الطعام ستذهب سدى . ولقد تعدى كرم البدوي الانسان إلى الحيوان . ويروى أن عنترة نحر في يوم زفافه مئات الإبل ورماها في البراري لتشاركه الوحوش في فرحه . والبطل السوري مقرى الوحوش كان يطلق في البرية كل ما يربحه من غزواته لأنه كان يطلب المجد لا الكسب . وأنا شخصياً أعرف شخصاً اسمه « ممشي الذيب » كان يربط جدياً في البرية عندما يسمع ذئباً يعوي قائلا : « لا يناديني ضيف في المساء دون أن يتناول الطعام » . لقد دعوت أنا شخصياً منذ مدة سمو الأمير عبدالله أمير شرق الأردن إلى وليمة بقرب وادي موسى — بتراء، وقد حضر ما يقرب من ٥٠٠ شخص من الفلاحين للسلام على سموه ، ولم أكن أتوقع حضور مثل هذا العدد، ولكن رجالي وكلهم من البدو لم يكونوا مستعدين أن يعرضوا أنفسهم لألسنة الفلاحين الجارحة ، ولذلك فان الطعام الذي طهي كان فضلا عن كفايته لاطعام الخمسمائة شخص فقد قدموا رزاً مسلوقاً وزبدة إلى مطايا الزائرين

حماية الضعيف

وبالاضافة إلى الثلاث الخصال التي تتصف الفروسية بها يوجد طبع آخر في البدو يحمل نفس الطابع الخيالي الذي اتصفت به عاداتهم الثلاث (المجد في الحرب . احترام المرأة . الكرم) التي سبق أن ذكرناها — وهو حماية الضعيف . فعند ما يلتجئ غريب أو أرملة أو يتيم إلى بدوي تراه يدافع عنه حتى يقاتل أقاربه لأجله. فمثلاً حرب البسوس التي وقعت منذ ألف وثلاثمائة سنة عند ما أطلق كليب وائل — كبير شيوخ معد — سهماً على ناقة الخالة جساس أخي جليلة زوجة كليب فقد ذهبت تلك العجوز إلى جساس وروت له الحادث ، فما تمت رواية قصتها حتى قام ولبس ملابس الحرب وذهب وقتل كليباً . ويقال إن حرباً دامت أربعين سنة بين الفريقين المتحاربين كانت نتيجة لهذا الحادث . وقد وقع مثل هذا الحادث في قبيلة الرولا — إذ طلب شيخ من عجوز من قبيلة الشرارات وهي قبيلة تحتقرها بقية القبائل يتخذ رجالها صناعة النحاس مهنة لهم ، فاستجارت العجوز بابن مشهور الشملان الذي أنجدها حتى أطلق على نفسه في الحرب

« أخو ربدة » اسم المرأة التي استجارت به زيادة فى تمجيد عمله العظيم . ومن عادات البدوى نجدة من يلتجيء إلى الخيمة . وبهذه المناسبة أود أن أذكر حادثاً وقع معى شخصياً عند ما ثار فيصل الدويش مع قبائل مطير على ابن سعود فحاربهم وانتصر عليهم وقد أرادوا الالتجاء إلى العراق عند ماطاردتهم الجيوش السعودية، ولكن أوامر مشددة صدرت إلى بمنعهم من الالتجاء إلى العراق . وقد تمكنت من إيقافهم فى موقع وبقيت فى انتظار وصول الجيوش السعودية لسوقهم. وفى ذات يوم بينما أنا فى خيمتى إذا برجل — وهو أحد زعماء المجان — يدخل الخيمة ويصيح: أنا أطلب الحماية — وكان هذا الزعيم من المكروهين والمنضوب عليهم من ابن سعود — لقد كان موقفاً حرجاً وعسيراً إذ أن عادات البدوى تقضى بحماية الرجل، وأوامر حكومتى تقضى بعدم السماح لأحد من المرور إلى العراق . ولكنى فى النهاية قررت أن أتبع تقاليد البدو فأركبته جملا وأفهمته أن يتوجه إلى قبيلة عراقية ساكنة بالقرب منا . لقد كنت أظن أن هذا الحادث قد انتهى وأن ابن سعود لن يسمع به . ولكن راعنى أن قدمت فى صباح اليوم التالى أربع سيارات سعودية تحمل وفداً برياسة سكرتير ابن سعود الخاص للاحتجاج على عملى بتهريب الرجل . ولكنى بلطف صرفت ذلك الوفد . وبعد فترة عاد الوفد يحمل كتابا شديد اللهجة حول تصرفي — لقد تحرج موقفى إذ أن أوامر حكومتى كانت صريحة ولكنى صممت على أن أبقى أمينا على عهدي مع الرجل . لم أجد لى مخرجا من هذا الأمر إلا بأن أفهمهم الحقيقة . وقد فعلت . طلب ابن سعود من الحكومة العراقية بعدئذ تسليم جميع اللاجئين ولكنه لم يشر بحرف إلى رجلى . إن العرب صلاب أشد الصلابة فى المطالبة والمدافعة عن حقوقهم ، ولكنك إذا التجأت إلى كرمهم فلن يخيبوا ظنك . وهذه قصة سمعتها من شاب ساكن مع بنى صخر فى شرق الأردن أصله من البلاد الواقعة قرب الخليج الفارسى — قال : قام الوهابيون وكنت معهم بهجوم على بنى صخر فقتلنا منهم وقتل منا خلق كثير. وفى تلك الوقعة أصبت بجراح وأعمى على حتى لم أفق إلا فى صباح اليوم التالى أمام خيام بنى صخر . قمت أتحامل على نفسى حتى قربت من بيت شعر وإذ برجل ما كاد يرانى حتى أطلق على عيارين ناريين — وكان قد فقد أخاه فى معركة الأمس — ولكن الغضب والحقد أعمياه فأخطأنى . حينئذ أسرعت حتى دخلت الخيمة فما كان منه إلا أن رمى بندقيته وأقبل يغسل جراحى .

ومن عادات البدوى التمسك بالصداقة والاعتراف بالجميل. فى يوم من الأيام اقتتل ابن على وابن رشيد من شيوخ قبيلة شمر فطرد ابن على ابن رشيد مع أخيه من القبيلة ، ترك الاخوان القبيلة ومعهما جمل واحد قاصدين البلد المعروف اليوم بشرق الأردن وفى طريقهما نزلا ضيفين على الخريشة فأكرم العبيد وفادتهما إذ كان الشيخ غائباً . وفى صباح اليوم التالى تهيأ للسفر فوجدا أن جملهما قد نفق . فسارا على الأقدام ، وفى الطريق قابلهما بدوى فسألهما عن حالهما فأخبراه بواقعة الحال ، فنزل عن جمله وقدمه إليهما قائلا : أنا الشيخ ولن يضيفنى إنسان راكباً ويترك منزلى راجلا . وعند ما عاد ابن رشيد إلى الحكم بقيت الخريشة صديقة معززة مكرمة . ومن الصفات التى يفتخر العرب بها الأمانة ، وقصتنا هى حادثة السموأل الذى ضحى بولده على أن يسلم الدروع التى ائتمنه عليها امرؤ القيس . منذ سنين قليلة مضت أغار عودة أبو تاية حليف لورنس على عنزة وكانت الغلبة لعودة، وفى أثناء المعركة رمى شخص نفسه على عوده يطلب الأمان ، فأمنه ، ولكن الرجل طلب علامة يدرأ بها الخطر عن نفسه فأعطاه عوده كوفيته ونزل إلى المعركة حاسر الرأس. ومرت السنون وإذا برجل غريب يقدم نفسه إلى عودة قائلا : إن لك عندى قطيعا من الماشية . فسأله عودة عن ذلك فقال : إننى الرجل الذى أعطيته كوفيتك فى الوقعة الفلانية وقد بعتها واشتريت بها ماشية وتكاثرت وهأنذا أقدمها لك . إن عودة كان قد نسى ذلك الرجل وكان العداء لا يزال على أشده بين القبيلتين

(يتبع)

جميل قبعين

تحت الطبع :

حيـــاة الرافعى

للأستاذ محمد سعيد العريان

الاشتراك فيه قبل الطبع ١٠ قروش تدفع إلى إدارة الرسالة

ثمن الكتاب بعد الطبع ١٥ قرشاً